الأدب القصصى المصرى

(بمناسبة صدور كتاب مختار القصص للأستاذ الكبير كامل كيلانى — طبعته دار العصور ونشرته مكتبة الوفد)

(١)

سنظل نشكو قلة القصص فى الأدب المصرى مع وفرة ماتنشره الصحف وتخرجه المطابع وسنظل نشكو هذه القلة أبداً حتى نخلص منها إلى شكوى التخمة القصصية يوم تجتاح القصص كل فنون الأدب المصرى وتسد علينا كل منافذه. وفى الحق إن فن القصص المصرى قد أخرج لنا الى الآن عدداً لا بأس به من الأقاصيص العصرية المؤلفة ولو أن الروح القومية روعيت فيها كلها لأصبح صرح هذا الأدب الجديد فى مصر متين الأساس ولكن الواقع أننا متأثرون — حتى فى أدبنا القومى — بالبيئة الغربية والوسط الغربى والروح الغربية الروائية فى معظم ما يظهر من القصص فى الأدب المصرى. فهى كلها لا تمثل من الحياة المصرية إلا النواحى الوصفية وكفى. أما تصوير البيئة المصرية والروح المصرية أو بمعنى آخر تصوير العاطفة المصرية الصحيحة ،فلن تعثر عليه فيما يتفق لك من قصص مصرية ولن تجد كاتبا مصريا يعنى بتصوير هذه الناحية — وقلة عنايته هذه لا ترجع إلى عدم اهتمام بها ولكنها ترجع أكثر الى القصور أو بعبارة أصرح الى الجهل والعجز .لا أقول إن كاتباً لم يحاول تصوير العاطفة المصرية فى الأدب القصصى المصرى الجديد،ولكننى أقول أن معظمهم إن لم يكونوا كلهم — قد أخفقوا فى ذلك ! وكلهم متأثر فى تصويره بالمجتمع والبيئة الغربية أو بمطالعاته فى الأدب القصصى الغربى .

وقد يكون صحيحاً أن الحياة المصرية والمجتمع المصرى بتقاليده الحالية وفى موقفه الشاذ الحاضر،لا يمكن أن يلهم المؤلف محوراً لقصة طريفة ! قد يكون هذا . ولكن العاطفة موجودة فى الحياة المصرية على كل حال و تصويرها على حقيقتها الراهنة

الآن هو الأساس المطلوب للأدب القصصى القومي فى مصر

و لذلك كله سرنى كثيراً أن يظهر « مختار القصص » و أن أعثر فيه على سبع قصص مصرية تصور الحياة المصرية فى البيئة المصرية بروح مصرية أو بالحرى تصور العاطفة المصرية سبع قصص يمكن أن تعتبرها نواة صالحة لحياة أدبية قصصية جديدة و هى كلها تصور أيضا الحياة القومية المصرية البسيطة بل الساذجة وأقصد تلك التى لم يعقدها امتزاجها بالحياة الغربية والشرقية الأخرى امتزاجا مشوشا تركها خليطاً مضحكا من عادات وتقاليد لا اتساق لها ولا رابطة بينها، أقول أعجبنى من الأستاذ كامل كيلانى أن يعمد إلى تصوير هذه الحياة المصرية البريئة التى لم تعكرها اللوثة الدخيلة، وأن يؤثر تصوير البيئة المتوسطة و يفضلها عن الحياة العصرية الراقية المتكلفة التى لم يستقر لها قرار بعد والتى تتبدل كل يوم فى شكل جديد !

(٢)

و « مختار القصص » كتاب حسن المظهر أنيق الطبع وحسبك أن أذكر أن « دار العصور » هى التى تولت طبعه وأن « مكتبة الوفد » هى التى عنيت بنشره لتتصور الشكل الذى يصدر به كتاب أدبى اجتمعت له هذه الأسباب . ويواجهك من الكتاب تصدير للناشر يقدم لك فيه الأستاذ كامل كيلانى بدراساته الجديدة فى الأدب العربى وعنايته بالأدب القديم والكتاب مصدر أيضا بقصيدة رائعة للدكتور أبى شادى فى (الأدب القصصى) ولعلها الاولى من نوعها أن تحلل هذا الادب الجديد وهى وإن كانت موجهة للاستاذ كامل كيلانى إلا أنه يمكنك أن تعتبرها مثلا توجهه للكاتب القصصى المصرى المنتظر وأنت إن أقبلت عليها فلن يسعك الا أن تعجب بمطلعها

إن الحياة — اذا اعتبرت — رواية فاستوح من قصص الحياة جمالا

ولن يسعك إلا أن تزداد إعجاباً عند هذا المعنى المبتكر :

فترى التأنق فى حياة سطوره ✲ وترى الحياة بها تفيض جلالا

ولا أظنك تمر على هذا المعنى دون أن تستعيد البيت ليتم استمتاعك به :

وترى التصرف بالخوالد زادها ✲ خلداً وزاد ما آلها ا آمالا

ثم تفرغ من هذا كله إلى مقدمة للاستاذ العلامة الجليل اسماعيل مظهر بك فى القصة

ونشأتها وتطور فكرتها ،ولاأحسبك تطمع أن تروى غلتك فى مثل هذا البحث من غير الاستاذ مظهر بك، فانه ينتقل بك من تحليل بارع من صورها الاولى وأثرها فى حياة الانسان الأول إلى تطورها الدينى وتكييفها لمعتقدات البشر أو تكييف المعتقدات لها، ثم الى ازدهارها واتساع أخيلتها لما جاء القرن الحادى عشر ولم يتغير الكون مع انهم كانوا يعتقدون نهاية العالم .وهو يبحث معك كل هذا فى أسلوبه العلمى الاستقرائى الطريف

والكتاب مع ذلك مقتطفات من كتب ثلاثة :

الأول ــ كتاب «مختار قصص السينما»

والثانى ــ كتاب «قصص بوكاتشو»

والثالث ــ كتاب «قصص مصرية»

ولن نعرض هنا إلا للنوع الأخير أى القصص المصرية وسندرسها وننقدها معا ملين أن تكون لنا عودة للنوعين الآخرين فى فرصة أخرى ذاكرين أن الأدب القصصى الجديد (ونقصد ذلك الذى يصور العاطفة المصرية كما أسلفنا) لم يبرح أطواق الحداثة بعد وإن الاستاذ كامل كيلانى هو أول كاتب قصصى مصرى ،أمكنه أن يصور العاطفة المصرية فى بيئة مصرية خالصة ومجتمع مصرى. بحت أما ما قد يكون لدراستنا من ملحوظات نقدية فهى ما لابد منه فى مستهل مثل هذا الأدب الجديد .

(٣)

وأولى القصص التى سندرسها معا هي «سنية» وأنت تشعر اذ تقرؤها انها تسير سيراً حسنا معقولا إلى أن يستحكم الحب بينها و بين «محمد» والاستاذ كامل كيلانى حريص (فى كل قصصه تقريبا) على أن يفجأك باستحكام أواصر المحبة بين ابطاله رأسا وهو لا يريد أن يرهقك أو يشجى عواطفك بشرح أدوار الغرام التى أدت إلى استحكامه ثم إن أباه الشيخ ابراهيم « الرجل الصالح التقى الورع «نهج نهجا مدهشا فقد غضب و« خرج عن طور الرزانة والحلم اللذين اتصف بهما » لما فاتحه ابنه محمد بأمر زواجه من حبيبته سنية ومانع بشدة. ولكن ذلك لم يزد محمدا إلا تعلقاً بفتاته فخاف عليه من الجنون وو عده بذلك،ولكن يعمد بعد ذلك إلى خطة غريبة حقا . فانه يعلم مبلغ حب محمد للفتاة،الحب الذى خشى أن يسبب له الجنون ان حرمه.وهو مع ذلك يرسله إلى

الريف فى مهمة خاصة و يوهم سنية انه هجرها وانه لا يحبها ،(فتبعث اليه بخطاب قاس تعاتبه فيه وتقاطعه وتعلنه بزواجها من ابن عمها (ودائما ابن العم فى كل قصة وعند كل كاتب قصصى) يصفق الشاب لهذا النبأ و يسقط مغميا عليه و يعود للقاهرة فى نفس اليوم و يعيش مسلوب اللب فيهجر مدرسته و دراساته الأخرى و ينصرف إلى « تأملاته الحزينة و يأسه المميت » و يظل هكذا ستة شهور يسمع بعدها عرضاً أن حبيبته قد زفت الى زوجها العنيد منذ يومين فقط ، وتتقرح فى نفسه جراحات القلب التى كادت تندمل فلا يحتمل آلامها و يظل يتململ حتى يخلصه منها ماء البحر !

والقصة بهذه الخاتمة لا تخلو من بعض تصرفات شاذة ، فان الشيخ ابراهيم الذى كبح جماح نفسه أولا ، ووعد ابنه « محمداً » بزواجه من حبيبته « سنية » لأنه لما حاول الاعتراض رآه « يهذى فى نومه وفى يقظته » ولأنه « كان وحيد أبويه » ولأنه « خشى أن يصيبه مس من الجنون » — الشيخ ابراهيم الذى يقدر كل هذا و يخشى عواقبه فى أول الأمر فيعد وحيده بالزواج من حبيبته ، لما لم يجد من ذلك مخرجاً ، لا يعقل أن ينقلب على ابنه فجأة فيدبر له هذا الأمر الذى يسلبه له و يفقده الوعى ، ثم انه يراه وقد هجر مدرسته وانصرف الى « تأملاته الحزينة و يأسه المميت » ولا يحرك مع ذلك ساكناً ، لا يلوح له ببارقة أمل وهو يعلم أن الفتاة لم تتزوج بعد ، ولو ان له تلك النفس الأولى التى تجزع إذ ترى وحيدها مهدداً بالجنون فتعده بأمنيته : لو ان له تلك النفس لما أمكن أن تطمئن إلى تركه مشرداً تائه الفكر واللب مصعقوقاً مع ان الحل بسيط ، فقد مكثت الفتاة ستة أشهر لم تتزوج خلالها كما أوهم ابنه . ثم إن والد الفتاة وإن كان وضيع المركز إلا أنه « عالى النفس تزينه الأمانة والاستقامة و يحليه الصدق والاخلاص والنزاهة » يشهد بذلك الشيخ ابراهيم نفسه الذى « رأى من أمانته واستقامته مازاد ثقته به » !

اسم القصة « سنية » ولكن محورها كان يدور حول « محمد » وحده ، فقد تتبعه المؤلف وحلل شخصيته باسهاب واستقرأ خواطره وآراءه فى شتى الحالات ، وقد شرح لنا فعل الحب به ؛ ولكن لم يشرح فعله « بسنية » ، والفتاة كانت تحمل للفتى مثل حبه ، ولكنها مع ذلك استقوت على الحب ، وعلى مقاطعة الحبيب ، وعلى الزواج من غير الحبيب دون أن تحدثها نفسها بشىء ، بينما نفس « محمد » تحدثه بأشياء لم يخلصه منها سوى الانتحار !

ويكاد يبدو الاقدام على الانتحار غريباً، ويكاد يكون من ذلك النوع الذى تنعاه على القصص المصرية المنتشرة الآن والمتشبعة بالروح الأجنبية والبيئة الأجنبية ، والتي نود أن نخلص منها إلى القومية المصرية البحتة التى يجب أن تصبغ كل مظاهر قصص الأدب المصرى القومى المنشود .

وإذا كان الحب الغنى الحسيب قد انتحر لأنه لم يتزوج من فتاة فقيرة وضيعة الحسب تبادله الحب فقد كان الأولى أن يسبق إليها هى خاطر الانتحار إن لم تسبق هى اليه.

*
* *

— ٤ —

ونفرغ من « سنية » أولى القصص المصرية بأمرين :

أولهما : — أن الاستاذ كيلانى قد وفق إلى أبعد حد فى تصوير العاطفة المصرية فى بيئة قومية : فكان بذلك أول كاتب قصصى استطاع أن يصوغ لنا قصة قومية مصرية بحته

ثانيهما : — أن الأستاذ كيلانى رغم دقة تصويره ، ورغم توفيقه فى هذا التصوير يتعجل انتهاء قصته قبل مناسبتها فيضطر الى الالتجاء الى الروح الغربية والفكرة القصصية الاجنبية التى لا تصلح أساساً لقصص قومية لبعد الاختلاف بين الحياتين والبيئتين

وسنرى معاً كيف أن الاستاذ كيلانى سار فى توفيقه الأول سيراً حسناً سريعاً ، وكيف انه وإن لم يتخلص تماما من الأمر الثانى ، حاول أن يلازم الروح المصرية جهده .

والقصة الثانية التى ندرسها الآن هى « التهمة » — وأنت ترى فى مستهلها حسن افندى ضابط الجيش مطمئنا الى جلسته فى قهوة ببورسعيد ؛ وأنت ترى الشاب الآخر الممتلىء الجسم القوى العضل يقترب منه وعلى وجهه آثار الاضطراب والذعر وأنت تجد حسن افندى يضطره حياؤه أخيراً إلى مجالسة الشاب الغريب الذى بدأه بالتحية

ويبدأ الشاب قصته بصوته المتهدج المضطرب ،فيروى لحسن أفندى كيف انه وزوجه نزلا إلى هذا البلد منذ شهرين وانهما قضياهما فى صفاء إلى أن تعرفت إلى زوجه عجوز خبيثة أفسدت عليه أمرها ، وكيف انتهى أمرهما اليوم إلى شجار كلامى عنيف صممت الزوجة بعده على مغادرته وهددته بالهرب إذا لم يطلقها ، وكيف أنه أحكم عليها قفل الباب وانصرف يبحث عن وسيلة تقنعها بالعدول عن فكرتها وليس له فى البلد قريب ولا صديق ، ثم كيف صار أخيراً حتى وقع نظره على حسن أفندى فشعر « بجاذبية عجيبة » له ، ويختم حديثه اليه بقوله :

« وكأن هاتفا خفياً يهتف بى أن خلاص كربتى على يديك » !

وينتهى الأمر بهما إلى قبول حسن افندى القيام مع الشاب الغريب إلى منزله ليصلح بينه وبين زوجه ! وأنت ترى أن حسن أفندى ضابط الجيش كان ساذجا إلى حد بعيد — ان لم يكن ابلها — فقد كان يجب أن يقدر — أن محدثه شاب مصرى هو فى الوقت نفسه زوج شابة مصرية اختلف معها لأسباب خاصة يظن هو أنها مفسدة لها ، فمن غير المعقول أن يوسط فى الصلح بينه وبين زوجته الشابة — التى يغار عليها والتى كانت الغيرة السبب الوحيد فى اختلافهما — لا يعقل أن يوسط بينه وبينها شابا مصريا غريبا عنه وعنها ، ولا يمكن أن تطمئن هى اليه اطمئناناً بريئا ! كان على حسن أفندى أن يقدر هذا كله ويدرك أن فى الأمر سراً آخر ، فقد أقدم الشاب الغريب على أمر قد يعد جرأة غريبة من رجل أوروبى فى بلد مثل باريس أو غيرها من بلدان الاباحية المتطرفة ، فما بالك به فى مصر التى لاتزال ترسف فى أغلال الحريم والحجاب وما إلى الحريم والحجاب من تقاليد وقيود ! ثم انها قد تبدو مدهشة لو صدرت من صديق خبر أحوال صديقه وسبر غوره وبادله الاخلاص الأكيد والثقة المطلقة ، فما بالك بها من شاب غريب فى بلد كبور سعيد ، لآخر غريب عنه وعن البلد ولم يريا بعضهما قبل الآن ولا جمعت بينهما غير ظروف خاصة غريبة ؟ . .

وأغرب من كل هذا أن يذهب حسن أفندى مع الشاب إلى منزله فيدخله غرفة قاصية ويطلب اليه أن ينتظر ريثما يحضر اليه زوجته ليصلح بينهما ! . ولو أننى رأيت هذا التصرف فى رواية سينمائية أوروبية إباحية ، لما أعجبت من مؤلفها بمثل هذه الفكرة

الغريبة الجريئة ، فهل ترانى اطمئن اليها من مؤلف مصرى يصور الحياة المصرية فى بيئة مصرية خالصة !

وينتظر حسن أفندى مايشاء له صبره الطويل وهو لايسمع حركة ثم يحس وحشة فى المنزل فيخرج من حجرته بحذر يتفقد المكان الذى ساقه اليه قلبه الطيب بل طيشه وعدم تبصره ولكنه لايجد أحداً ! . .ووصل إلى غرفة رآها مظلمة ،أضاءها فوجدها حجرة نوم فخمة ، نعم لقد «وجد سريرا من أفخم الأسرة ،فدنا منه ، ورفع اللحاف قليلا فرأى وجهها رائع الحسن . بسم ، وظن أن الرجل قد تركه فى الشقة ليصل به إلى هذه النتيجة ،وحسب الفتاة تتصنع النوم . لمس كفها فوجدها باردة ، وتحقق من وجهها فرأى سمات الموت بادية عليه قليلا . . . رفع الغطاء كله ، فماذا رأى

يالله ول ــ أمعاؤها خارجة ــ ولاتزال المدية التى بقرت بطنها فى صدرها غارقة فى دماء الفتاة !

نعم لقد وجدها قتيلة وليس فى الحجرة معها غيره !

ولا يكاد حسن افندى يستفيق من دهشته وذهوله إلا وهو بين أيدى رجال التحقيق، وينكر حسن افندى طبعاً جريمة القتل التى ألصقتها به الظروف القاسية ولكنهم يسخرون منه وينصحونه أن يعترف بالحقيقة ! فقد اتفقت على إدانته أدلة قوية لايأتيها النقض من جهة من جهاتها، ثم هو يستطيع بمشقة أن يثبت لهم براءته بشهادة الكشف الطبى وبشهادة غلام القهوة التى كان جالسا عليها حين جاءه الزوج لأول مرة ويقبض على الزوج الجانى فيعترف بجريمته وينال جزاءه .

* * *

— ٥ —

ونفرغ من هذه « التهمة » بأمرين أيضا :

اولها ــ أن الاستاذ كامل كيلانى استمر موفقا فى تصوير العاطفة المصرية فى بيئة مصرية قومية تصويراً جديرا بكل إعجاب .

ثانيهما ــ أن الاستاذ كامل افندى كيلانى لم يتعجل هذه المرة نهاية القصة ، ولكنه تعجل تكوين « العقدة » القصصية ، ثم استمر هادئا موفقا فى دقة تصوير

بارعة وجاء ختام القصة نتيجة طبيعية «للعقدة» القصصية فكان من أسباب تبرير التعجيل الذى لجا الاستاذ كيلانى اليه فى تكوينها .

ونترك (التهمة) لندرس معا القصة الثالثة (عزيزة) وهى أبرع قصه صورت العاطفة المصرية تصويرا صادقا مفصلا ،وحللت الحب فى البيئة المصرية المحجبة ورقبت أطواره فى نجاح وتوفيق . فأنت ترى عزيزة فى بداية القصه تتصرف عن اتقان هندامها وسائر مايشغل الفتيات من سنها ، ترى تلك الفتاة النحاسية النحيفة التى تكادمع ذلك تدانى الرجل فى جرأته وقوة بطشه لايشغلها إلا أمر توطيد مركزها ومركز أسرتها المتوسطة الحال فى ذلك الحي الفقير الآهل بالعمال والمساكين ، وانما أمر آخر يدرعلى أمها بعض أخلاف الرزق ، ذلك هو قيامها ببعض أعمال تجارية بين القاهرة وبعض قرى المنوفية ، تحمل اليها الأثواب والانسجة لتبيعها للقرويين ، أو لتبادلهم بها السمن والغلال وسائر ما يطمع مثلها فى الحصول عليه من المحصولات القروية .

وتصادف عزيزة فى تنقلاتها شابا فلاحا قوى الجسم مفتول الساعدين فيحبها وتحبه ، وينمو بينهما الحب سريعا فيؤرقها ويقض مضجعها ويشغل عليها كل أوقاتها فتكثر من التردد على ذلك البلد بمناسبة وبغير مناسبة وتلجأ الى جارلها حوذى مشهور فى الحى بالحذق واللباقة فتستودعه أسرارها وتتخذه وسيطا فى إرسال وتسلم رسائل الغرام بينها وبين معشوقها مقابل بضع قروش او علبة سجائر تجودبها عليه بين حين وآخر . وغير الحب أحوالها فانقلبت من فتاة (شرسة لاتتطرق الرحمة الى قلبها) ولا تعرف هوادة فى إنفاذ انتقامها المروع ، الى فتاة أخرى مستكينة هادئة قد هذب الحب قلبها وأذلها وكسر شكيمتها وأقض مضجعها وألجأها الى حوذى ما كانت تفكر لحظة فيه لولا هيامها بعشيقها الذى لا تحلو لها الحياة الا به .

وأنا أريد أن أقف بك هنا لحظة تستعيد فيها ماقرأت وتترك العنان لاعجابك بهذا القصص الذى يوفق الى التسلس الطبيعى الظريف فى ذلك التصوير الرائع للطائفة المصرية الخالصة فى البيئة المصرية البحتة، وليس أدل على ذلك من أن نعود بك الى محور القصه لترى كيف تكاد تلهب نيران الغرام أحشاء عزيزة وكيف تنتحل الاعذار لتكثر من التردد عليه فى بلده وكيف ينتهى ولع الشاب بها بالنتيجة الطبيعية التى ينتهى اليها حب مثله إذا نال وطره . استمر معها نحو عامين تلاهما زهده فيها وانصرافه

عنها وان بقيت هى تجن له الحب وترى فيه (المثل الأعلى الذى تصبو اليه نفسها) ! ويتمادى العشيق فى فتوره ، وعبثاً تحاول اجتذابه اليها ، فقد ملها وتاقت نفسه الى متعة أخرى ، تيأس « عزيزة » من حبه فيضنيها هجره ويمضها فراقه ، وتكاتبه فلا تحظ منه برد . وتحاول مقابلته فيتهرب منها فتنصرف عن هذا كله إلى ما تنصرف إليه المرأة المقهورة المغلوبة على أمرها : تلجأ إلى الدموع فى مذلة ومسكنة ، وتصبح وديعة حزينة ، وتسرى عدوى حزنها إلى أمها فتكفان عن أذى الناس ، ولا يمر زمن طويل حتى تنكب هذه الأسرة فى أملها الوحيد فى الحياة إذ يقع الابن الفرد تحت عجلات القطار فتقطع ساقه اليمنى وتصاب اليسرى بضرر جسيم .

تولول « عزيزة » وتلطم أمها الخدود وتشق الجيوب وينخلع قلب الزوج وتقضى العائلة بقية أيامها فى أسى صامت تثيره تلك الساق التى وضع الاطباء بدلها ساقا صناعية.

وتنشب الثورة المصرية فى سنة ١٩١٩ وتكثر الاضطرابات وتسمع « عزيزة » وهى تتناول عشاءها ـ صوت طلق نارى تعقبه صيحة يخيل إليها انها صادرة من شقيقها فتترك عشاءها وتهرول فى الظلام حتى تصل إلى ذلك الشخص الصريع ولا تكاد تميزه حتى ينهال عليها وابل الرصاص فتخر صريعة لا تنبس بلفظة !

***

— ٦ —

ونخرج من « عزيزة » أشد اعتقاداً فى توفيق المؤلف فى تصوير العاطفة المصرية فى البيئة المصرية وأكثر إعجابا بدقته فى التصوير وبراعته فى ترتيب القصة المنطقى. وترى انه لم يتعجل هذه المرة « العقدة » القصصية ولكنه كان يساير المنطق القصصى فى هدوء ولم يتعجل الخاتمة كذلك وإن دس ثورة سنة ١٩١٩ ليلتهى بها من « عزيزة » ويفرغ معها من القصة ! ولكنه مع ذلك تخلص معقول ؛ بل تخلص بارع بالنسبة لما يلجأ إليه غيره من القصصيين المصريين .

ونفرغ من « عزيزة » لنعالج دراسة « الهتيكة » ولعلها أحسن وأمتع ما يحويه « مختار القصص » من القصص المصرية ولو انها تميل إلى ذلك النوع الوصفى الذى انصرف إليه كل كتابنا القصصيين ، ولكنها مع ذلك ممتعة بارعة التصوير ، فأنت ترى الحاج

على فى بدايتها بدأب على تكوين وتنمية ثروته المحصورة من طريق التجارة ، وأنت تراه أيضا بعد مضى خمسة عشر عاماً يستطيع أن يبنى له بيتاً قريباً من محل تجارته وينشىء فى أسفله دكاناً خيراً من الدكان الذى كان مستأجره فى الزمن الأول .

ويظل الحاج على يعيش مع زوجه خديجة الريفية فى دور أرضى حقير يرزقان فيه بابنة وثلاثة أبناء ذكور ، فلما تحسنت حالتهم المادية انتقلوا جميعهم إلى المنزل الجديد .

وتدأب الأسرة كلها على تحصيل الثروة : الولدان الكبيران يساعدان أباهما بالعمل أجيرين ، والأب ينصرف إلى توسيع تجارته والتحبب إلى عملائه فيقبل عليه الناس. بيد أن الابن الثالث كسول يميل إلى البطالة ولا تنفع معه شدة أبيه وصرامته والجهود العظيمة التى يبذلها فى إصلاحه ، ولكنه وضع لفساده حداً معقولا .

ولكن خديجة الزوجة الريفية التى قاست مع الحاج على شظف العيش تطلعت الى البطر ورأت من حرص زوجها عقبة لم تذللها إلا بالسرقة منه ، فاتفقت مع جارة لها فقيرة على نهب زوجها وتغفله ، تسرق لها ما تصل إليه يدها من مخازن زوجها وتبيعه لها الجارة وتشترى لها به ملابس وجوارب ومناديل وذاك أقصى ما تطمع فيه !

وكانت خديجة لا تتحرج فى تكليف ابنتها « سميرة » بالقيام بهذه المهمة تضع لها الجبن أو الصابون فى اناء قذر وتخرج به أمام والدها على انها تحوى أقذار أتريد إلقاءها فى الخارج ويموت الحاج على تاركا لأسرته ثروة لا بأس بها ، بل هى كبيرة بالنسبة اليهم إذا أضفت إليها المنزل الذى بناه حديثا ـ ولكن الاعمال لا تلبث أن تختل إذ يندفع أصغر الأولاد إلى تيار الملاذ الجارف بعد أن زال الكابوس الذى كان مصدر مضايقته المستمرة .

يغلق محل التجارة بعد مدة و يباع أكثر البيت ويفلس القائمون باعمال التجارة بعد وفاة عميد الاسرة !

و يعود الولدان الكبيران الى مزاولة عملها الأول وهو على حقارته ومشقته لا يكاد يسد الرمق ، ويتمادى الاصغر فى ملاهيه حتى اذا نضب معين نقوده عمد إلى السرقة فيصادفه النجاح أول أمره ، ولكنه لا يلبث أن يضبط ويزج به فى السجن .

وما تزال المرأة والفتاة تعانيان شظف العيش وتقاسيان مرارة البؤس منحدرتين من سيء الى اسوأ حتى بلغتا أقصى حدود الشقاء ، وتسف الام بابنتها وتقذف بها فى الهاوية السحيقة فتتردى فيها الفتاة وقد فقدت أثمن ما تملكه الفتاة الشريفة !وتدور

الايام و تتزوج الفتاة من شاب فقير سليم الطوية كثير التغاضى يميل الى الدعة و يرى فى حسنها ماينسيه كل اعتبار آخر .

وتمر السنون متتابعة . وتنتقل « سميرة » مع زوجها الهادى المستكين الى سكن ارضى ضيق مظلم يستأجرانه من شيخ محسن بأجر ضئيل يتنازل عنه بعد أن يتبين له فقرهما المدقع - هذا والسيدة خديجة لاتفتأ تتردد على منزل ابنتها مزينة لها الانسياق فى تيار الرذيلة تغريها حتى لسرقة الحيوانات الضالة فى الطريق ، وكم وقعت لها بطة سمينة أو أوزة تشبع نهمها حيناً ، وكان الزوج يودع زوجته كل مايربحه وهى تدبر له أمر معاشه ، وكم كان معجبا بها ويتدبيرها الحسن عند مايجلس الى طعامه فتقدم له البطة أو الاوزة يستمتع بها وهو لايكلف نفسه مشقة التحرى عن مصدرها :

و زارت الام فتاتها ذات يوم ، فرأت عند بابها ماأفعم قلبها سرورا وبهجة ، عنزة سمينة تأتى الى باب منزلها بقدميها ، ياللغنيمة !

كانت العنزة ملكا لصاحب مقهى مجاور للمنزل . وكان يقضى نهاره فى مراقبتها أو تكليف أحد غلمانه بذلك . وكان واقفا يلحظها وهى تتلكأ أمام منزل « سميرة » . وحدث أنه غاب عنها داخل القهوة لحظة قصيرة لامر ما . لحظة قصيرة جداً . ولكنه لما خرج لم يجد عنزته المحبوبة . ووجد باب المنزل مغلقا . طار عقل الرجل . وهرول كالمجنون حتى وقف امام المنزل ونظر اليه فى تردد . ومرت اذ ذاك احدى نساء الحى وكانت ماكرة لئيمة ، ويظهر انها كانت ترقب افعال المرأتين وتضمر الشر لهما وانتهزت هذه الفرصة فدنت من صاحب المقهى وهمست فى أذنه . وحدث أن مرت أخت الرجل . و يظهر انها كانت كأخيها معروفة فى « الحارة » بالحول و الجبروت . فانها ما كادت تعلم بقصة أخيها حتى هاجت وماجت وصارت تهجم على الباب تقرعه بعنف ولكن مامن مجيب . ويسمع الجيران بالامر ويتزاحمون على بيت « سميرة » ، و يتقدم جارلها يثق فيها و يتعهد للحاضرين باثبات براءتها بعد ان يؤكد لهم بعدها عن كل شين . ويدق الباب و ينادي على الفتاة بصوته فيسمع جواباخافتا فاتراً كأنما هو صادر من شخص يستيقظ من النوم . يسمع صوت يمهله قليلا حتى ترتدى صاحبته ثيابها و يفتح الباب بعد برهة و يندفع اليه الناس يفتشونه وتنسل السيدة « خديجة » والدة الفتاة بين الجموع المحتشدة بالباب ، ولايترك صاحب العنزة جزءا من البيت إلا يبحث فيه بدقه ولكنه لايعثر على شيء .

فيخرج آسفا على سوء ظنه بالناس ويعلو البشر أسارير «سميرة» وتندفع تندد لصاحب المقهي وباخته وتسبهما على سوء ظنهما بها وهى الفتاة الطاهرة الشريفة. وتسمع أخت صاحب المقهى هذا فتستشيط غضبا وتهجم على البيت كأنها تحقق هاجسا خفيا فى نفسها وتذهب الى مكان خاص فيه زير وتنظر فى ذلك الزير فلا تجد شيئا وبينا هى تهم بالعودة كاسفة البال اذ بالزير يهوى الى الارض فتسيل الماء ويسقط معه جسم العنزة وقد شطر شطرين!

يهلل الناس ويصفق الاولاد ويشتد الزحام وتساق الفتاة بين سخرية الجموع الى مركز الشرطة وقد حملت الماعز التى ذبحتها فى انية من اوانيها. ويرق لها قلب خصمها صاحب المقهى لما تقترب من مركز الشرطة فيعفو عنها بعد أن يتعهد له أحد المحسنين بدفع نصف ثمن العنزة وان عجزت هى عن سداده.

وتتوب «سميرة» عن السرقة بعد هذه «الهتيكة» وتنصرف الى الصلاة والنسك!

* * *

—٧—

وأنت ترى انى لم أكن مبالغاً حين ذكرت لك أن «الهتيكة» من أقوى وأبرع القصص التى تناولت الحياة المصرية وإن انصرفت كل العناية الى الناحية الوصفية، وان أريد أن أترك لك أمر دراستها فى مختار القصص، فلم أذكر لك إلا ملخصاً أبتر، ولست أؤكد لك أن تلخيصى هذا لم يشوه القصة ولم يمسخها، لأنها كما ذكرت لك من النوع الوصفى أو هى «صورة» يجب أن تلم بكل أركانها وتتمعن فيها قبل أن تجازف برأيك - ولأجل هذا لا أود أن استلخص معك شيئاً من هذه القصة، بل أتركها لدراستك الشخصية وإن كنت واثقاً ان النتيجة فى الحالين لا يتنا ولها تغيير كبير. وهناك من القصص المصرية - غير «الهتيكة» - ثلاث قصص أخرى لم نعرض لها هنا وكنا نظن أن فى المجال متسعاً لبحثها ودراستها، وهى «المصادفات» و «المتردية» و «المفاجأة» ولن أشير عليك بأكثر من الرجوع اليها وقراءتها لتؤمن معي بأن الأستاذ كامل أفندى كيلانى كان موفقا فيها كلها إلى حد كبير، فقد استطاع أن يصور لك كما قلت الحياة المصرية الصحيحة فى البيئة المصرية البحتة أو بمعنى آخر كان أول قصصى مصرى صور العاطفة المصرية فى أدب قومى جديد

* * *

تعمدت أن لا أتناول فى هذا البحث إلا نوعا واحداً من القصص التي حواها « مختار القصص » ومع ذلك لم يتسع المقام لدراسة هذا النوع الواحد وإن كنت قد ألممت بالفكرة إلماماً. و أنا أعتذر للقارىء عن هذا التقصير الذى لا بد لى فيه وان فاتنى أن أدرس معه قصص بوكاتشو التى تعد الضوء العالمى الذى قبس منه كل كتاب الغرب . إن فاتتنى هذه الدراسة الطريفة فلن يفوتنى أن أوجه نظره إلى « إوز فلورنسا » و الهرم وتقويمه السنوى وقسوة زوج غيور وتغفل مزدوج وغيرها .

و الاستاذ كامل كيلانى — كما يقرر ناشر الكتاب و كما نعرف — أديب كبير معروف بدراسته الجديدة للأدب العربى فضلا عن صيته الذائع كأعظم حجة بيننا فى أدب المتنبي والمعرى وابن الرومى وقد شهدت على آثار مجهوده العظيم فيما درسناه له معاً من قصص مصرية ولعلك لاتتردد فى تصديقى اذا قلت لك إن الأستاذ كيلانى سكرتير رابطة الأدب الجديد بالقاهرة لا يجد الغرور اليه سبيلا فما زال بعد ما ظهر من إنتاجه ومجهوده مقدمات لما سيظهر ولازال يسعى وراء النقد الحر . بينا غيره يجرى وراء المادحين المتملقين وأذكر هنا أن الأستاذ كيلانى لما بلغه أننى أكتب عن (مختار القصص) كتب الى ما أثبته هنا حرفيا :

ولعلك تعرف ياسيدى الأخ أننى أرحب — أو على الحقيقة من أرحب — الناس صدراً لسماع عبارات النقد لأنتفع بها فى القصص التالية — هل قرأت ؟ وهل شعرت بالفرق بين زعماء الأدب الجديد المتواضعين الداعين الى الأخاء والسلام الأدبى وبين المتألهين المتعجرفين الداعين الى التنابذ والفردية الأدبية الممقونة ؟

ولقد اجتهدت أن أتسقط مواطن النقد فى « مختار القصص » ولكننى أعترف أننى لم أوفق وأن أضعف مافى هذا البحث هى ماخذ النقد فقد يكفى للرد عليها أن الأستاذ كامل كيلانى أقدم على أدب مصرى قومي جديد ولم يسبقه قصصى آخر الى تصوير العاطفة المصرية فى مثل هذا التوفيق ؟

الاسكندرية فى ٥ سبتمبر سنه ٩٢٩

على محمد البحراوى